

مأساة الإنسان

الثنائية التي خلق الإنسان عليها تشكل له مأساة ، فقد خلق من روح وطن ، فهو - تبعاً للروح التي تشكل جزء من طبيعته - يطمح إلى الخلود والسمو والمطلق واللامتناهي ، وهو إذ يصبو إلى ذلك ويندفع إليه بروحه يجد جذور طبيعته ضاربة في أرض الفناء والمحدود ، فالجزء الطيني أبداً يخالف الجزء الروحاني ، وبين الروحاني والطيني تتشكل مأساة الإنسان .

وإذا ما أشدّد وعي الإنسان بوجوده / وتيقظ إحساسه به ازداد تبعاً لذلك ألمه وشعر بثقل وجوده ، وأنه لا يزد عن كونه لعنة وسجناً . فالجزء الروحاني فيه دائماً فاضحاً الجزء الطيني ، ومعدداً لعيوبه ونقائصه ووضاعته وهوانه ، ويصبح الوجود عبثاً ليس له أي قيمة ترجى . فما قيمته إذا كان محدوداً ، فترة من الزمن قصرت امطالت وينتهي . فمهما حدث فيه . فله أجل محدود .

ولكن تلك الثنائية في طبيعة الإنسان لا يتبعها ثنائية في الشعور ، فهو لا يشعر بشعور روحاني على حدة . ولكنهما ممتزجان ، ولا يبقى إلا شعور واحد وإحساس واحد بالحياة وبالوجود وبالذات ، شعور بالقلق والتوتر الذي يعكس مأساة الإنسان .

والإنسان من أكثر المخلوقات وعياً بذاته وبوجوده ، فهو دائماً يقف أمامه يقيمه ويتامله ويزنه ، وقد لا يخرج بنتيجة من ذلك ، وإن خرج فهي مؤسفة له ولبنى جنسه ، ويدور فلسفة المازني حول ثلاث محاور :

• الأول ، القيمة الإنسانية .

• الثاني ، قدرة الوجود .

• الثالث ، عبثة الوجود .

أولاً: القيمة الإنسانية :

ما قيمة الإنسان في الوجود ؟

إذا ما بحث الإنسان عن تلك القيمة ، فإنه مؤثر جد خطير ، فليس هناك إجابة على هذا السؤال فهي من الأسئلة التي تحتوي في صياغتها على الإجابة فالإنسان هو المعيار الحقيقي الذي توزن أي قيمة من القيم ، فكل القيم تتخذ أهميتها ووزنها بمقدار أهميتها وخطورتها لدن الإنسان ..فهو الضوء الذي يسلط على تلك القيم ليظهرها إلى الوجود ، ويعطيها اسماءها وصفاتها ، وفي غياب هذا المعيار الذي به تقيم القيم يضل الإنسان ضاللا بعيدا ، ويلتبس الحق بالباطل وتفقد الفواصل التي تفصل بين المتناقضات من نور وظلام وعدل وظلم وخير وشر ويصبح الوجود الإنساني شديد القتامة وتتغشاه ظلمة مطبقة .

وقد عاصر قصاصنا حريين عالميتين ، استخدمت في إحداها القنبلة الذرية ولأول مرة في تاريخ البشرية ، وكان للحريين أبلغ تأثير على المازني وبقية الأدباء والمفكرين ليس في مصر فحسب بل في العالم كله ، ومن تأثير الحريين حدث صدع في كل القيم التي تسود العالم ، وزلزلت كل الأنظمة والتي أصبحت تتصارع فيما بينها من أجل البقاء ، وكان وقود هذا الصراع هو الإنسان ، وأصبح يشكل ما تشكله الآلة الجامدة من مدفع أو بندقية ، وأضحى الزمان كأنه رحي مجنونة تطحن البشر طحنا لا تبقي ولا تذر ، يقول دكتور زكي نجيب محمود في كتابه

(مع الشعراء) صفحة (٢٠) : " فلقد أحس نوابغ الأدباء أن القيم الإنسانية أهدرت إهدارًا ، وأن الغلبة قد أصبحت للطعام ومن هم دون الطعام " .
وأصبح الأمر خطير والذي عكس تلك الخطورة ورصدها بصدق هو البحث عن قيمة الإنسان وسط تلك الفوضى الكونية ، فلم يعد الإنسان كما كان ، فقد ضاع . ومن الواجب بل من الضروري البحث عنه . وإذا ما تم العثور عليه يصبح من اليسير العثور على القيم التي اختفت باختفائه ، وإذا اهتزت قيمة الإنسان فالبحث عن القيم نوع من العبث .

ويناقش قضية القيمة الإنسانية في قصة (إبراهيم الثاني) بالفصل الخامس والذي عقده لرصد التغيرات التي طرأت عليه وعلى زوجته (تحية) بعد وفاة (عايده) والتي كان يرتبط معها بعلاقة من نوع ما ، ويوضح في حوارهِ بينهُ وبين زوجته أن فساد الوجود الإنساني لا يأتي من الخارج ، وإنما موطنه الإنسان ذاته ونفسه ، يقول في صفحة (٩٣) : (لماذا خلق الله هذه الدنيا وما حفلت به من جمال ؟ وما خيرها لنا إذا كنا سنعمى عنها ؟ هل تذكرين الجبن الذي أكلنا منه ظهر اليوم ؟) .

وكان الانتقال مفاجئًا ، ولا صلة له بما هو فيه ، ولكنها ألفت منه هذه الوثبات ، فتبسمت وقالت : (نعم . ماله ؟)

قال : (لقد كان هذا جينا طيبا وكان طعمه لذيذا . وهو صالح نافع أيضا . ولكن إذا تركناه زمنا كافيا ، إن شيئا غريبا ممتعا يحدث له . تدب فيه حشرة طفيلية نسميها الدودة ، وتتكاثر الديدان ، وتجعله كالأسفنجة . من أين جاء الدود ؟ إنه لم يجرئ من الخارج ، وهو طفيلي ، وعلامة فساد وانحلال ... أنتجه الفساد الذي

دب في الجبن ، وكذلك النفس لا تفسد بشيء من الخارج بل يكون ما يظهر فيها من الخوالج السود القبيحة نتيجة الفساد الذي اعتراها من الباطن) .

واضح في كرسيه وغامر وجهه وهو يقول: (يخيّل إلي أن من الممكن أن نكون نحن الأدميين ، وغيرنا من صور الحياة ، علامات فساد وانحلال . وعسى أن نكون ظهرنا في هذه الدنيا كما يظهر الدود في الجبن أو المش ، ومن يدري ؟ لعنا حشرات طفيلية يخص بها كيان ضخم ، فهي تعبت فيه ، كيان ظل موجوداً أكثر مما ينبغي ففسد وصار جديراً بأن يرمى أو يمحي) .

الصورة هنا مبتكرة وجميلة ... وانظر معي إلى طرفي الصورة لتري إلى أي درك نزل الإنسان - وإن كان لا يدعو عن فرض افترضه المازني هنا - فالدنيا كأنها قطعة من الجبن الفاسد أو مساحة شاسعة من المش ، والإنسان بمثابة تلك الحشرة التافهة (الدودة) وأصدر حكماً بإعدام هذا الجبن الفاسد والحشرات التي تعبت فيه .

فالإنسان كأي شيء على الأرض فان ، كائن مستهلك يأتي عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . يمرض ، يفسد ، يتحلل يفنى ، يشابه في ذلك أدنى الكائنات وأبسطها .

إذن في تلك الناحية بالذات لا تزد قيمة الإنسان على قيمة تلك الدودة ، لأن المصير واحد ، ويخرج الإنسان بمقارنته بما دونه من الكائنات بوجود مشبوح خالي من القيمة ، وفي قصة (إبراهيم الكاتب) صفحة (١٤٣) أثناء لقاء إبراهيم و (شوشو) والتي بدأ الحب يبني جسوره الشفافة بينهما ، وكان الليل صاف والنجوم طالعة عليها ترنو من عليائها ، و (شوشو) مفتونة بهذا الجمال ، ولكن

إبراهيم يحول هذا الجمال إلى وجهة أخرى ، فتلك السماء المتسعة بلا نهاية تعطي إحساسا بصغر وضالة وتفاهة الإنسان ، فأين مكان الإنسان وسط هذا الكون العظيم ، وفوق تلك الأرض المسجورة والحافلة ، وتحت تلك السماء الممتدة بلا نهاية يقول : (وطال سكونها لأن الليل عظم وقعه في صدر إبراهيم وكان مما يرفه عن أعصابه أن يرسل اللّحظ يريد ليخرق به احشاء الظلماء فتكشف له عن نجوم السماء ويرتد اللّحظ دونها كليلا حسيرا ، وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين في أجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا ، وكذلك كانا واقفين في ليلتهما تلك هي مفتونة بجمالها ، وهو يكاد يسحقه الرعب ويفنيه الشعور بضالته إذ يجيل عينه في فيافي السماء اللانهاية ، ثم قال لها كأنما أراد أن ينقل إليها إحساسه بهول السماء وضالة الإنسان وكل ما يتعلق به أو كأنما كان يعنيه أن ينغص عليها متعنها بهذا المنظر - ثقي أن هذه السماء ليست مجعولة للإنسان مهما تكن علة وجودها ، إنه لا شيء ، في الأرض أو في السماء مجعول لهذا المخلوق الذي يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس أقدر من هذه السماء على إشعار الإنسان ضالته أو لا شيئته إذا شئت .

فأدارت إليه وجهها وقد سحرتها نبرة صوته وراعها ما في لهجته من المرارة وقالت كأنما تريد أن تصدّفه عن هذا الأسلوب من التفكير .

- ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟

فضحك - ضحكة عصبية - وقال : (يوجد ؟ يوجد ، إن صح بلفظ الوجود - صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شمس ، وتوجد اقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يجمد الفكر كلما حاول أن يتصورها - هذا ما يوجد ! وضحك مرة

اخرى ولصقت هي به كالخائفة ، وهو عنها في شغل يحدق في السماء وقد شعر
فجأة وعلى كل حبه لها – كأنما بينه وبينها بعد ما بين الأرض والمشتري . ومضى
يقول ،

هذه السماء التي يسحق النفس جلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن يقذف به
في أجوازها اللانهائية ... ليس جمالها الذي يسحرك بالخاطر ولا الباقي ! ها حتى
هذه مرجوع وهجها رمادا (وجذبها من كتفها) أنظري هذا النجم الذي يكاد يخبو
وميضه بين أخوته نجوم الدب الأكبر كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمعانا !
فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعي الرثاء ! وتصوري هذه النجوم كلها – كلها –
قد خمدت ؟ تصوري عقلك يلتمس طريقه في سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان
يضيء ! تصوري عقلك يصطدم في ظلمة الكون بقطعة كابية من هذه الكواكب !
نحي عينك ! غضي بصرك من السماء إذا أردت أن تستبقي بشاشة نفسك .
ففرغت وأقبلت عليه وأسندت رأسها الصغير إلى كتفه وأراحت خدها على جانب
صدره وتعلقت يسراها بكتفه الأخرى فأفاق ومسح لها شعرها حتى زايلها الخوف
وإن كان لم يزايله هو الاكتئاب ، ولم يفارقه الشعور بما بينهما فرسخ أو فراسخ !
إنن لأمكن أن يبتسم . وخطرله في هذه اللحظة أن ما يعزيه ، لو ان هذا مما يعزي
أننا سعدنا أو شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا ، وان الدنيا ستومض
فيها عيون غير عيوننا ، وتخفق فيها قلوب أخرى وترهق عقول جديدة وأنها
ستشهد أشجاء طريفة تندب ومسرات ومباهج حديثة تطلب ، ويستعز بها على
حين نعود نحن كما سيعود كل شيء قبضة من تراب) .

فهنا يسخر المازني ممن يدعون بان الإنسان محور الوجود . وأن الكون كله مسخر لهذا الكائن ، وأنه السيد المسيطر ... ألا ما أهونه ، فكل ما حوله يزيدده ضالة وإذا كان الكون من سماء وأرض مآلها إلى الفناء ولها مالها من الضخامة والعظمة فما بالك بالإنسان ؟ إنه لا شيء بالمرّة ، منعدم القيمة وإن الأمر لا يعدو فترة من الزمن يمكث فيها الإنسان ، ثم يمضي ويأتي غيره بدون أن يشعر به أحد .

وتلك النظرة التي ينظر بها المازني إلى الإنسان ليس مردها الغضب من شأن الإنسان ، أو إيمانه بعدمية قيمته ، ولكنه يريد أن يعطي للإنسان حجمه الصحيح ويعطي حكما صادقا لقيمة الإنسان ، حتى لا يحاول أن يبسط سلطانه على ما حوله متخذا في ذلك وسائل الظلم والقهر ، يقول د / حامد عبد الهوال في كتابه (السخرية في أدب المازني) صفحة (٢٢٠) (إن المازني باستخفافه بنفسه يمثل استخفافا بالإنسان عموما ، الإنسان المغرور الذي يذهب بعيدا في تقدير نفسه ويظن العالم كله خلق من أجله ، فتستبد به الرغبة في السيطرة على كل شيء ويرى كل ما يحصل ضئيلا بالقياس إلى ما يريد وما يناسب حاجته . وهو في طموحه الشخصي يمثل الطموح الإنساني بصفة عامة ، ذلك الذي لا يعرف حدودا لأطماعه ولا حدود الزمن ، ولكن أنى له ذلك ، وكيف يمكن أن يحطم قوانين الحياة والكون من أجله وكيف يمكن أن يسمح للإنسان بأن يتمادى على ما لانهاية في تحقيق رغباته وملذاته وأطماعه ؟) .

ولا شيء يفسد على الإنسان حياته كما يفسدها الطمع والتكبر ومحاولة الاستحواذ على كل شيء ، وحمله لواء العصيان والتمرد على قوانين الحياة حتى

على خالقه . وهو - الإنسان - وإن كان أعطى نوع من الامتياز عن بقية المخلوقات إلا أنه بهذا الامتياز لن يخرق الأرض ، ولن يبلغ الجبال طولاً .

ثانياً : قدرية الوجود الإنساني :

نظرة المازني للوجود - نظرة قدرية صرفة . فهو لا يملك شيئاً لتشكيل وجوده وإنما كل شيء مقدور على الإنسان منذ خلق ، بدون إبداء أي تمرد أو اعتراض عليه فالإنسان أضعف من أن يشكل وجوده بيده .

وربما يكون قد تبنى تلك النظرة لأن أكثر ما حدث في حياته ، كان على خلاف ما كان يريد ، وعندما تحدث أمور على خلاف ما نبغي ، متحدية في ذلك إرادتنا ورغباتنا ، لا نملك إلا أن نؤمن بقدرية الوجود الإنساني ، ودائماً يضع المازني شخصياته أمام القدر ليظهر ضعف وعجز وخور الإنسان ، وأن القدر لا يعبأ بتحطيم الإنسان على صخور اليأس والقنوط .

جرى حديث بين إبراهيم الكاتب و(ليلي) ، تلك التي قابلها أثناء وجوده بالأقصر ، وكانا يتنزهان على صفحة النيل في زورق ، صفحة (١٩٠) نقول ليلي :

- إنني أكره الرجال .
- فمضى إبراهيم ولم يجب كأن الأمر لا يعنيه والخطاب ليس موجهاً إليه فالتفت إليه وعلى شفيتها ابتسامة عذبة وقالت :
- أحسبني أسأت الأدب ؟
- فقال : (كلا وإنني لأعذرك كلما ذكرت التسعة عشر - وأعطف عليك أيضا)
- فالتمعت في عينيها نظرة خبيثة وهي تقول ،
- من حسن الحظ أن الرقم لم يبلغ العشرين .

- فقال وعينيه إلى السماء ، وعلى وجهه آيات الدهول :

- من يدري ؟ على أن الواحد المتمم للعشرين .

- وسكت . فسألته وهي تدنو منه :

- لماذا تقول من يدري ؟

فأرسلها ضحكة مفرقة ، وقال : (وهل في الدنيا من يدري شيئاً قد يكون مذهب المرء واضحاً والطريق أمامه ظاهراً . ولكن الغاية التي يصل إليها بعد الجهد والعناء من الذي يستطيع أن يقول إنها هي التي كان يقصد إليها حين أخذ الطريق) .

فهي قوة فوق الإنسان تسيره وفق إرادتها هي . ضاربة بإرادة الإنسان عرض الحائط ، مبددة رغباته في فضاء المستحيل ، والمصادفة - وهي تلعب دوراً كبيراً في النسج القصصي للمارني - تلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان . في صفحة (٢٦٥) من قصة (إبراهيم الكاتب) . يقول إبراهيم بعدما عرفت (ليلي) ما كان بين إبراهيم وشوشو من حديثها مع الشيخ (على) أثناء زيارته لإبراهيم في الأقصر أرادت ليلي أن تفصم عرى العلاقة بينها وبين إبراهيم لتعيده إلى (شوشو) ولم تجد من سبيل إلى ذلك غير أن تخبره أن ماضيها ملوث وأنها قد أقامت علاقات كثيرة مع رجال من كل صنف ولون . بصور المصادفة كمبدأ يستند عليه الوجود : (والمصادفة أصل كل حادث في هذه الدنيا التي يخيل إلى المرء أن (الحياة) حدثت فيها المصادفة فإذا لم تكن هي الأصل - فلا أقل من أن نعترف بأنه مامن حدث إلا لها فيه أصبع غليظة وأن كل تغير أو انقلاب أو اتجاه جديد لا يخلو من بعض نواحيه من مصادفة كان لها تأثير حاسم في هذه الفترة من حياة إبراهيم فقد كان كما عرف القارئ يلهج بالزواج من ليلي . ولم يكن ذلك ليسترها أو يستر

نفسه كما فعل حين عاد الدكتور محمود والشيخ على ولا ليصحح مركزها ، فما كان يجري له في وهم أن بمركزها حاجة إلى التصحيح ، ولا كانت أنباته بالحياة الجديدة في أحشائها . وإنما كان يدفعه إلى ذلك حبه لها ونزوعه إلى الاستقرار من ناحية وإلى المكيدة والعداء من ناحية أخرى . غير أنه بعد أن صارحته ليلى بما أوهمته أنه ماضيها الحالك ، تردد وأشفق ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون إلى الواقع أو الاضراب عن التفكير في المستقبل مقيسا إلى الماضي ، ومع ترده وإشفاقه كاد حبه لها يطغى على إحجامه ، وكادت معاودة التفكير الهادي توسع في عينيه ما ضيقه العرف . لولا أن ليلى مدت يدها فجأة فأنفذته .

فالصدفة هنا هي الوجه الآخر للقدر....فإن لم يكن للإنسان يد في إحداث الصدفة ، فإن تديرها يرجع إلى القدر ، والإنسان إذا ما اقتنع بأن كل ما يحدث له من تدبير القدر ولا له فيه ستراح وأزاح كل هم من على صدره ، واخ سبيل من المحاسبة ، ولا يجشم نفسه عناء تحقيق شيء في طي الغيب ... كيف يحاول وهو يعلم أن كل شيء ي يد القدر...ويريح نفسه من عناء الندم على شيء مضى ، وكيف يندم على شيء ولم يكن في طوقه فعل شيء ؟

إنها معادلة يقيمها الإنسان القدري لكي يستريح من عناء الإحساس بالوجود الإنساني .

يقول في (إبراهيم الثاني) صفحة (١١) عندما أحس بفنور من جانب (ميمي) تلك الشخصية التي اقترَب منها بغية تحريك حياته الزوجية الراكضة : (وظل بضعة أيام يحدث نفسه كالموسوس بتعبيس صاحبتة (ميمي) وكان أمراً في أصل طباعه الجد الصارم . وإن كان قد عود نفسه ابتغاء الراحة . أن يأخذ الأمور من مأخذها

السهلة القريبة وأن ينظر إلى الحياة من ناحيتها المشرقة الوضاءة من غير أن تغيب عنه نواحيها الكالحة ، وكان مما راض به نفسه على ذلك قوله لها وهربنا حين يخلو بها ، (إن الدنيا ليست بالجنة ولم تخلق على هوانا ولا كان لنا رأي في خلقنا نحن ، وإنما جننا لأن نواميس الحياة اقتضت أن نجئ فغير عجيب أن يكون ثم ما يسخطنا ولا يرضينا . ولو ذهبنا نتسخط كل ما لا يرضينا لما عادت الحياة محتملة . فالصبر والحلم وتناول الأمور برفق وتسهيل أوجب ما يجب ، وأدل شيء على حسن الفهم وصحة الإدراك ، وليس هذا من قبيل قولهم ليس في الإمكان أبدع مما كان . فإن كل ما في الدنيا قابل لتحسين وإصلاح وتهذيب وإن لم يكن في ذاته غاية في السوء والفساد) .

فهو يرى أن ليس لنا رأي في مجيئنا إلى تلك الحياة . وإنما القضية لا تدخل فيها إرادة الإنسان ، فهي قضية نواميس وقوانين فرضت على الإنسان في هذا الوجود ، وفرض عليه أن يحياها بتلك النوعية من الضحالة والتفاهة ولذلك يجب ألا ننتظر من هذا الوجود أن يوافق أمزجتنا . ولكن ينبغي أن نقبله على علاقته حتى نستطيع أن نتحملة ، وننفذ ما قضت به النواميس وما حكمت به القوانين .

وهو في قصة (ثلاثة رجال وامرأة) ، صفحة (١٠٣) : (وكل شيء في هذه الدنيا اتفاق ، أو حظوظ ، وقسم ، وقلما يغشى التدبير والسعي والطلب غناء المصادفة . وما أكثر ما (تأتي المقيم وما سعى حاجاته عدد الحصى . ويخيب سعي الطالب) . وفي نفس القصة . وبعد أن عالج الأستاذ (حلیم) ما وقع فيه هو (محاسن) وتخلصا مما في أحشائها نتيجة العبث الذي كان يحدث من الأستاذ

(حلیم) - والتي خنقت رغباته الجنسية بعد أن رفضت زوجه معاشرته - لحاسن تلك الفتاة التي لم تكذب تجاوز طور المراهقة ، يقول : (وغنهايلخيل إلى أن كل شيء في هذه الدنيا قضاء وقدر . من كان يظن أن الذي لا يحدث إلا في الفلقات النادرة وفي مرة كل خمسين الف مرة ، يحدث لنا من أول مرة . وعلى من هذا التحرز والاحتياط ؟ سوء حظ ليس إلا ... أو قدر جرى به القضاء) .

ثم يقص الأستاذ حلیم على محاسن قصة وإن كانت ساذجة ومبتذلة إلا أنها تنشي عن اعتقاده وفحوى القصة ، سقوط طفل من عمارة عالية ولكنه ينجو من الموت ، ذلك لأن رجلا كان يسير في الشارع - مصادفة - فتلقاه بذراعيه وينتهي من سرد الحكاية بقوله : (فهل آمنت أن كل شيء في دنيانا قدر وقسمة) فربتت على كتفه وقالت : (ثق أنني لا ألوّمك على شيء ولكنه لا يسعني إلا أن أشعركم بألم ومرارة لأنني كنت ضحية هذا القدر ، فأعذرني إذا فاضت المرارة على لساني) .

وأغلب شخصيات قصصه تعتقد هذا المعتقد الذي يؤمن بالقدر ، وينصاع ويخضع مستسلما لما ينزل به من تجارب أليمة وصدمات عنيفة ، والمازني هنا يعكس الروح المصرية بصدق كامل ، تلك الروح التي تستقبل كل ما ينزله بها القدر من مصائب بنفس قوية وصدر رحب وقلب ثابت ؛ لأنها تؤمن بعمق بسطوة القدر وأن الإنسان لا يملك إزاءه شيئا .

ثالثا : عبثية الوجود :

إذا نظرنا إلى المحورين اللذين تدور عليهما فلسفة المازني ، وهما القيمة الإنسانية وقدرية الوجود ، أعطيا نتيجة واحدة ، وهي أن الوجود الإنساني ما هو

إلا نوع من العبث، وقد فهم المازني تلك النتيجة وتمثلها تمثلا صادقا، وانعكس ذلك على قصصه وعلى نظريته لكل ما حوله، والمازني من أكثر الأدباء إذا ما اعتقد شيئا اعتقده ليس عقلا فحسب، وإنما إحساسا وشعورا، وهذا راجع إلى ذاتيته وهو ليس بالمعتقد من خلال اطلاعه أو قراءته، وإنما مصدره في ذلك التجربة التي عايشها ومربها وممرت به، وأثرت فيه أبلغ تأثير، والمازني يعكس تلك النظرة للوجود، فقد ركب كل شيء بالعبث والمزاح والفكاهة والسخرية... وربما يكون سر سخريته هو ذلك الشعور والإحساس الذي يقابل به الوجود الإنساني، فلماذا يحزن أو يتكدر إذا كان كل ما حولنا عبث؟ وكل ما حولنا إلى زوال وإلى فناء، ولكن تلك السخرية واللامبالاة التي يقابل بها الوجود تخفي فيما عميقا للوجود الإنساني... ففي هذا الوجود الناقص والمتذبذب دائما نحو الامتلاء والخلو، نحو الاخضرار والذبول، بعد كل هذا لا يصير كل شيء إلى زوال، وكما يقولون الأعمال بخواتيمها وإذا كانت خاتمة الوجود هو الموت والفناء، فإن تلك الخاتمة أو النهاية القاتمة تلقي بظلالها الحالكة على كل ما في الوجود الإنساني، ويصبح كأنه لعنة حلت بالإنسان على ذنب لا يدري ما هو ولا أين ولا متى ارتكبه!!

ويقف الإنسان حائرا ليلقي السؤال الخالد الذي أعياه جوابه، ما الحياة..؟
ما الموت..؟

يقول في قصة (إبراهيم الكاتب) صفحة (٢٨٤) ، (وهبت الريح بي كالمجنونة فعدت وكأني أمشي على ماء لحي يعلو ويهبط ، وسفت الرمال في وجهي حيثما أدركته كأنما أرادت الحياة أن ترجمني ، وتسابقت زمامها إلى أذني فوقفت مكاني

لا أريه ، وقلت لنفسي : (ماذا يصنع العود النابت في الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين أو يتقصف !) .

فملت إلى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة وجعلت أفكر في هذه الحياة الغريبة التي يمتزج فيها الصراخ بالغناء ، ويختلط به الألم والطرب وأقول لا شك أن الحياة عمياء صماء ، فليتها توهب البصر هنيهة ، لتري هذا الخليط من الحسن من الحسن والقبح والخير والشر ، وبالييت من يدري ما تصنع إذن ؟ أتري يثور بها الخجل فتعصف بكل شيء وتمحوه ؟ أم تأخذ في إصلاحه وعلاجه في صبر وأناة ؟ وأم لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاي من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذرته لهذه الرياح !) فهمت في أدني الرابع ،

(ما الحسن وما القبح ؟ وما الحزن وما السرور والخير والشر وما الإحساس والعقل ؟ والخصب والجذب والصحة والسقم وليأس والأمل؟ والبكاء والضحك ؟) .
ولشعر هنا بأن المازني يرى الوجود فوضى مختلط بالمتناقضات لا يستطيع أن يضع له اسما أو عنوانا ، فلو وهبت الحياة لبصر - وكأنها عمياء - فسوف تخجل من نفسها ، وتأخذ في تحطيم الوجود الفاسد ، والمازني يحمل من طاقات الكره والإزدراء لهذا الوجود الكثير ، ولو كان الأمر بيده لحطم كل شيء وأذراه أدراج الرياح ولكن ما سبب هذا المقت الشديد للحياة ؟ وما تلك الظلال السوداء الي تقطر حسروا لما من قصص المازني ؟

يقول الدكتور (حامد عبد الهوال) في كتابه : (السخرية في أدب المازني) صفحة (١٩٣) : (سخر المازني من الحياة ، لأنه على قدر ما عاش فيها لم يفهم جدواها

أدرك منذ الصغر نهايتها ، وربما بأعمق من إدراكه لبدايتها ، فنشأ لديه الاستخفاف بها وبكل ما فيها) .

ويقول : (وقد نتمثل نحن ذلك ، ولكننا لا نشعر بتأثيرات مرضية أو بقلق زائد ولكن إذا كان التمثل مؤيدا بالمشاهدة اليومية ، أو المعاناة أو المكابرة عن قرب فالأمر يختلف وقد لا يتأثر الآخرون بمثل ما تأثر المازني به لأنه مهياً لهذا التأثير ولأنه مرهف ولم يكن في حياته وفترة صباه ما يجذبه إلى أن يستغرق في الوجود وينسى معه عدمية المستقبل الذي يستحضر قربها دائما ، ولذلك لا ندهش إذا رأيناه يعتبر هذا القدر الذي نعيشه نافها ، مادام الموت ينتظره ويتساءل لماذا خلقنا ؟ ولماذا كان هذا الوجود ؟ ويستخف بكل شيء في غير مبالاة) .

والإنسان قلما يسعد في حياته تلك ، فهي قصيرة ، فالربيع أياما ، والخريف أعواما ، والحياة لا تخلو من منغصات تصاحب كل مرحلة يمر بها الإنسان بدءاً من الطفولة إلى نهاية العمر ، وكيف يشعر بالسعادة والسرور وكل يوم يمضي هي خطوة نحو الموت والفناء ، وأكثر حياته يمضيها بدون إحساس أو شعور ، فهو موجود على الأرض ، ولكنه ليس بحي .

يدور حديث بين إبراهيم الكاتب وبين الشيخ (على) حينما دخلت عليه (زوزو) ابنة الشيخ تعابته وتداعيه ، وتعجب إبراهيم من تفضيل الشيخ ابنته (زوزو) على ابنه (محمد) بحجة أن الولد وليس البنت هو الامتداد الطبيعي لحياة الإنسان بقول الشيخ : (كلا يا صاحبي ن وليس إيثاري لها لأنها الكبرى ، كلا أيضا أنت شاب فمن حقت أن يكون هذا رأيك في ربيع العمر وللشباب حكمه الذي يؤثر

فيه فلسفة ولا يغيره علم أو اطلاع ويصمت برهة ، ثم يقول كأننا يحدث نفسه بصوت خافت منهجج :

للحياة كما للأيام فصول ، ولكن فصول الحياة تتوالى على غير ميعاد ، وليس كل فصل منها ككل فصل ، فقد يكون الربيع أياما والخريف أعواما ! والذي يجيء منها لا يعود ومتى جاء الخريف وبدأ المريشعر بأنه قد رأى خيرا ما كتب له في عمره ، وإن ما بقى من رحلته في هذه الدنيا أشبه بأن يكون (وجوداً) منه بأن يكون (حياة) استمرار ومجرد اندفاع في الطريق الذي كانت تجري في (الحياة) الأولى ، كما يجري النازل من (الترام) عرف المرء أن أذنه التي كانت تتمثلها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذي كان يطفرف إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طمح ، يخفق بلا احتفال ولا يخرج في دقة عن انتظام) .

والذي يجعل الحياة ويجعل للوجود قيمة يصبو الإنسان إليها أن يحياها أن يكون هناك أمنية يود تحقيقها ، ويشعر غدا ما تحققت أن قد أصبح أسعد المخلوقات على وجه الأرض ، ولكن حتى هذا يضعف ويخفت بريقه شيئا فشيئا بل قد يتسرب الملل واليأس إلى نفوسنا بعد تحقيقها ، ويصبح الوجود بعد أن كان ممثليئا ، تسمع فيه أصداء الفراغ في سمائه ، وبعد أن كان أخضر يافعا ، يأخذ في الجفاف والذبول .

يقول الشيخ (علي) : (وبدأت الآمال والرغائب التي كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها ويهن استلاؤنا على نفوسنا ويضعف أغراؤها

لخيالنا وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفرو وتتساقط على اليد وبطيرها
النسيم هنا وهناك) .

وكان المازني يشفق من هذا المصير المؤلم ، ويحاول أن يخفف من كثافته
القائمة ، فيتعزى بالذكرى عما فقدته وعما صار إليه ، ويقول على لسان الشيخ
(علي) : (متى صرنا إلى هنا - فإن المرء تهتز نفسه لابنته وترتاح إلى منحها الحب
إن هذه الفتاة الصغيرة يا صاحبي تعيد إلى الشعور بحرارة الحياة وقوتها الدافقة
في ربيع العمر ، نعم أنها إنما تحيي (ذكرى) ذلك ولا تجدد الشعور ولا تهب القوة
التي نفذت ، ولكن الذكرى غناء) .

فهنأ وقت التعزي بالذكرى وإذا ما أخذ الإنسان يتشبت بالذكرى هذا
التشبت القوي ، فقد ضعف عن احتمال الوجود الحاضر ، وأن الأوان لكي يفارق
الوجود .

وفي صفحة (٢٦٤) تجول تلك الخواطر بذهن إبراهيم الكاتب بعدما صارحته
(ليلي) بأضيها غير الطيب : (ثنى إبراهيم وجهه إلى الحائط وقد تنفس الصعداء -
وهذا غريب - ثم ذهب يفكر وهي تحسبه قد أولأها ظهره ريشاً ترتدي ثيابها .
فخيل إليه أن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة باخلاص إلا بعين يمتزج فيها
التشاؤم والتسامح وأن الدنيا حافلة بالسوء والمقايح ، وإن الحياة منها - أقيى -
فنونها - التثبيط وأن الإنسان يعيش في سنين وسنين ، ويتصل بمن لا يحصى
عدهم من الناس ، ولكن ما أقل الموافق منهم ، والذي يسعك أن يتوثق ما بينك
وبينه من غير أن يكون هناك مقدار من الملل أو الاحتقار أو الامتعاض أو الخجل
وأنا نعلم ذلك ونحن نسعى في الدنيا ونبغى الناس ، وأن خاتمة كل حياة الأسف

والندم وهما جبل ينمو معنا طالعا من تحت أقدامنا ، وقلما نعرف اسمه في صبانا وما أكثر ما نتوهمه جبلاً رائعاً جليلاً وإنه لرائع وجميل ولكنه مخيب للأمل ويعلو الجبل أمامنا ويتضخم ، ونحن نصعد فيه وتوغل فرحين بالحياة مغتبطين بالعيش ، ثم لا نلبث على أيام أن نتسهل وندير عيوننا فيما حولنا ونرجع البصر فيما خلفنا وراءنا ، فتأخذ عيوننا شقوق الفضائح وفدافد اليأس وأودية السقوط ومع ذلك نظل نصعد في جبل الندامة ، وماذا عسانا نفعل غير ذلك ؟ ويجيء يوم نهزم فيه ، وتكل أرجلنا ، وتجف أنسجتنا ونعبي بالابتعاد ، فنقعد على قمة مريحة وننظر إلى جداول الحياة المنحدرة ، الحياة التي تظل تترقرق ويظل واديهما خصبا وإن جففنا نحن واحدا بعد واحد فنتعلل بذكرياتنا وتبدولنا هذه الذكريات أجمل وأصعب من الحوادث التي ولدتها) . بكل إباء ، ترك (إبراهيم) .

ولسيت المأساة في الوجود فحسب ، وإنما أيضا فيمن حولك ، فهو يشعر بالغربة وهو بين ووسط الناس ، فلا هم متوافقون معه ، ولا يشعرون بما يشعر به فقد أحب (إبراهيم) (شوشو) وطمح إلى الاقتران بها ، ولكن كانت العقبة متمثلة في (سميحة) فهي أكبر من شوشو ، والعادات والتقاليد تمنع أن تزوج الصغرى قبل الكبرى ، وكانت النية مبيتة لدى (نجية) كبرى أخوات شوشو تزويج سميحة من إبراهيم ، ولكن إبراهيم يرفض ذلك ، فليس هناك استلطاف من جانب إبراهيم ، وحينما عرف (إبراهيم) أن نجية ترفض تزويجه شوشو بكل إباء ترك (إبراهيم) الجميع هاربا مع آلامه إلى الأقصر ، وصادف هناك (ليلي) التي نشأت علاقة حب بينها وبين إبراهيم ، ولكنها تركت إبراهيم بعدما عرفت ما

كان بينه وبين شوشو كي تخلي الطريق لشوشو ، ومن قبل (شوشو) و (ليلي) كانت (ماري) ، فلم يستطع أن يكمل مع إحداهن طريقا بده .

والأسف والندم يأكلان كبد الإنسان ، وهما معه لا يفارقانه من الأسف على العمر الذي مضى ولا رجوع له . والندم على حياة الإنسان التي انقضت وتقصت ظنا منه أنه من الممكن أن يحيها ، كما يجب أن تحيا .

والمازني - هنا - يصور بكل صدق أزمة الوجود الإنساني ، بكل ما يحمله هذا الوجود من قتامة ومرارة .

يقول إبراهيم الكاتب في صفحة (٧٨) : (ما الحب ؟) وما الشهرة والضمول وما السعادة والشقاء ؟ وما الحياة نفسها ؟) وأعياد أن يهتدي إلى جواب مريح - وأي جواب آخر سوى أنها عناء وباطل ليس يجدي ، وليس هذا بجواب وإنما هو همسة الضعف ووسوسة العجز ، وصحيح أن الحياة لا فرق عندها بين سعيد وشقي ، ومجدود ومكدود ومعروف ومغمور وعاشق وخلي ، وحيوان ونبات وجماد . ولكن هناك فرقا بين إحساسات المرء بواقع الحياة ، والمرء ليس سر الحياة حتى يطلب منه ان يكون نظره إلى الأشياء كنظرها هي واعتباره لها كاعتبارها) .

وهناك المازني : لم يحب الإنسان ؟ ليس كل حب إلى ملال ، ولم يوجد الإنسان أليس كل وجود إلى فناء ؟ ولم يسعى إلى الشهرة إذا كانت مصيرها الضمول ، وما السعادة إذ هي لا محالة ستزول ؟ الكل باطل وقبض الريح وحصاد الهشيم .

الخروج من أزمة الوجود الإنساني

ولكن كيف الخروج من تلك الأزمة ؟ وكيف نتعامل مع هذا الوجود الأعمى ؟
الخروج من هذا يتوقف على نوعية الإنسان . وتلك القدرات التي في حوزته
وقد حدد المازني تلك القدرات ، فالإنسان - عنده - من الكائنات التي حالما تتكيف
مع الأوضاع التي تعارضه ، لذلك يجب أن يكون الإنسان - في رأيه - من النوع
الزئبقي ، كما وصف المازني إحدى شخصياته في (ميدو وشركاد) - سرعان
ما يتكيف مع الوضع الوجودي الذي يعايشه ، بمعنى إذا كان الوجود بلا قانون
يحكمه ، أو منطق ينظمه ، فلا يجدي أن يحاول الإنسان فهمه بعقله ، لأنه - الوجود
- يخضع لقانون لا يستطيع الإنسان فهمه أو تقبل هذا الفهم ، فالذي ينظم هذا
الكون لا ينظمه وفق المنطق الإنساني المحدود الأفق ، الضحل العمق . ولأنه فوق
فهمه ، يتهم الإنسان الوجود بالفساد والنقص ؛ لأنه غير مفهوم له . وخرج المازني
من تلك الأزمة أن لا يتعامل مع الوجود بالعقل ، فالوجود لا عقلاني . ويوضح هذا
حينما يدير حوارا بينه وبين نفسه في قصة (إبراهيم الكاتب) صفحة (١٣١)
بعد أن ترك دار الشيخ (على) إلى الإسكندرية وقد استيقن من حبه (لشوشو) :
(وحده ؟ كلا . بل معه ... كيف تقول ؟ نفسه تحاوره وتداوره وتناوشه أيضا وتقول له
فيما تقول ،

- إنك تحبها . ألسنت تحبها ؟

فيقول ، (أحبها ؟ وبحي ! لقد كان لي ثوب رجولية زين ، فأين وفائي
للخلاق الرزين ؟ تجملي أين ؟ وكرامتي ماذا صنع الله بها ؟ وردي النفس
إذا جمحت ، على مكروها ؟ أحبها ؟ وأسفاه ، لقد صرت عاري الهوى ليس لي

ما يستر القلب عن الناظرين . وكأنما هذه الدنيا خواء في عيني خراباً فمن استحي ؟
وماذا يبعث في النفس الشعور بالعزة ؟

ويطلق ضحكة مثقلة بالدموع المحبوسة فنقول النفس ملحة :

- تحبها إذن ؟

- نعم .

- جسمها .

- يفتني روحها فيه .

- طيبعتها ؟

- نادرة . نادرة .

ويرسل آهة .

فترداد نفسه عليه شدا ولا ترفق به ونقول :

- إذن لا شك في النتيجة ؟

فيقول ، (لا أدري !)

فتعيد عليه الكرة

- ألا تظن أنه من المحتمل أن تظفر بزواجها ؟

فيهز كفيه ويقول :

- ربما ! ولكن كيف واللعيبة أختها تكيد لنا وتعترض سبيلنا .

- وتكف النفس هنيئة ، ثم يعود فنسأل :

- أليس كل حب إلى هلاك ؟ وكل حسن إلى عفاء ؟

- نعم .

- وللقـلب جمـحه أليس كـذلك ؟
- نعم .
- أليس أولى بك أن تجعل القلب لجاما ؟
- فيسألها بدوره (كيف) ؟
- فلا تجيب ولا تسمح له أن ينقلب هو السائل وتقول :
- هل لك عمران !
- ماذا تعنين ؟
- هل ضمنت عمرا جديدا غير هذا ؟
- كلا !
- أو هل تعرف أن لعمرك هذا من يرفوه إذا بلى وتمزق ؟
- أي فكرة !
- كم ساعة عشتها بعقلك ؟
- فيعجب لسؤالها وبلغت كأنها يخاطب شخصا محسوسا إلى جانبه ويقول :
- ياله من سؤال !
- إن حولك الأرض والسموات تغري العقل بالتفكير .
- فيقول مستخفا (نعم ؟)
- كان حقك أن تصقل عقلك لا أن تصدئه !
- يعني ماذا ؟
- يعني أنني أراك تطلب الحسن لتغنيه – أليس كذلك ؟
- طبيعة الفنان ؟ هيه ؟

- لا تسخري بي من فضلك ؟!
 - لست أسخر. ولكني أحب الحسن يوجد في غير الإنسان أيضا .
 - نعم ، ولكنه في الإنسان أتم وأبهر وأوفى تعبيراً .
- فقول النفس : (أحسبني فهمت : لا بد لك أن تسند صدرك القريح أبى شوكة
الورد إذ تغنيها ؟)

فيثور بنفسه يلعنها فلا تعباً ويقول :

- كنت اظنك أحق بأن تحاكي النسور لا القمارى !
- النسور
- نعم ترفع الطرف مثلها في سماء الفكر . ولكنك عبد الحياة . عبدها الباكي
الشادي بغنائها الذي لا يعجب الأحرار والطلقاء . واحسب أنك معذور
إذا بكيت أسارك وحاولت أن تتلهى في سجنك لا بأس ، أرسل صوتك
ليؤديه الصدى مقطعا أه نعم .
- غن وقل كما يصيح الصبي في الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف . وأحلم على
الرغم من الرق والأسر - بالخلود . وغالط نفسك وقل إن الجمال وحي ، وإن الحب
لا ادري ماذا أيضا ؟ ولكن ألا تسمح لي أن أسألك ما وحي الأراهير الذي يذكي
أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رفرافة الغضن فيحاء الثمار ؟ أين وحي الينبوع
فاضت به الأصلاذ ؟ لا بأس غن يا عبد الأيام أو العوبة الليالي !

فلرح بذراعيه، وقال : (أوه ! العقل العقل ، ليت إذن المقادير حرمتنا هذه
النعمة التي لم تغن بها ، ماذا عليها لو أنها كانت تركتنا نرعى الكلا ؟ ماذا تخسر
الدنيا لو كانت الحياة حتمنا (فكرة) السماء وسمرت لحظنا إلى الأرض ؟ كنا

نرعى ملء البطون نباتا وننشق ملء الصدور هواء ولا نعد السنين ، فلا سنة جاءت ولا أخرى مضت ن ونحيا ونحن نجهل أننا أموات ، ثم نموت بما كنا أحياء ونلبس الحياة في كل حال راضين ناعمين جاهلين ابتداءها وانتهاءها ، ولكن المقادير أفاضت علينا نعمة الحس فهيهات ينفع العقل ، نحن أحياء الأحياء ، فلة أحسننا الحياة بالأعصاب العارية لما كان ذلك يكفي ... والمرء يظلم الله ويجحد فضله إذا خزن ما منحه الله وخبأ ما وهبه ، لا لا . إنك تريد قيمة ليس فيها حلم وعلى أنه يا نفس ، ما الفرق ، آخر الأمر بين من يقول ليس ثم سوى الأرض ، ومن يقول لن تنالوا السماء) .

صراع بين إبراهيم الكاتب ونفسه . تدفعه إلى تحكيم العقل وأن يكون كالنصور رائدة في ذلك المنطق . ولكنه يعرضها ويتمنى لو أنه خلق بلا عقل حتى يقف موقف الرافض للوجود ، لا يريد من الجزء أو الجانب الروحي أن ينغص على الجزء أو الجانب الطبيعي حياته ؛ ليعيش ويستمتع بهذا الوجود ن ويعيش جاهلا أنه في لحظة من اللحظات ، بعدت أو قربت سيموت .

وإذا كان الإنسان سيعيش بوحى من العقل ، يفعل هذا ولا يفعل ذاك محاولا في ذلك تعقيل الوجود ، فإنه بذلك يضمن مما أعطاه الله من وجود وحياة على نفسه . فالحياة نعمة يجب أن يستمتع بها الإنسان ، وهي قصيرة ، وهو لا يستطيع أن يحياها بالعقل فحسب ، ولو كان هذا المفروض لكان الله خلقنا عقولا صرفة ، ولكنه خلق فينا جزء من طبيعة هذا الوجود ، ونحن نميل إلى ما شابهنا .

وحينما يكون المجال مجال القلب ، فلا مبرر لوجود العقل وأحكامه ، ونلمح ذلك من خلال تحذير نفسه له من التماذي مع (شوشو) ، لأن العواقب ستكون وخيمة وستكون هناك مخاطر . نقول نفسه في صفحة (١٣٥) :

- هل قدرت المخاطر ؟

فقال بجدّة :

(هل كان أنطونيوي يجمع وي طرح ويعني بهذه العمليات الحسابية وهو يتلكأ

بجانب كليوباترا ؟

- فعادت تسأله : (ولكن المسؤولية) .

- فقال : (إنني أعلم أن المسألة خطيرة ، ولكن الرجوع لا سبيل إليه الآن ، ثم

إنني لا أريد أن أتراجع .

- فسأله : (ومتى تخطبها ؟)

- فقال : قريباً في أول فرصة .

- وإذا رفضوا ؟

(آه إذن أدفن سري في قلبي ولا أرثيه حتى بقصيدة) .

فليس العقل هو المطية المناسبة كي نسير به بين جبال وكهوف وأودية وبحار الوجود ، فهو لا يتناسب وتعرجات وتناقضات الوجود ، فالعقل لا يستطيع أن يعيش بين المتناقضات ، فليس أمامه إلا خياران ، أما أن يوفق بين المتناقضات أو يترك الأمر برمته . بينما التناقض صفة من صفات الوجود لا يستطيع العقل إزالته . والحل الوحيد لتلك المعادلة هو استحالة التعامل بالعقل مع الوجود .

يقول دكتور حامد عبده الهوال في كتابه : (السخرية في أدب المازني) صفحة (٢٣٤) : (كان المازني قوي الإحساس بالحياة سريع التجاوب معها ، والحياة ليست لونا واحداً ، ليست مرارة دائمة ولا حلاوة دائمة ، ترق وتغذب فتشرق نفس المازني ، وتصفو وتنطلق في فكاهاات ساخرة من كل ما يقف في تيار هذا الاشراق أو يحاول أن يعطل هذا الانطلاق ، وتقسو وتشتد فتتأثر النفس لها وتشتد أكثر فيبدأ شعور المازني بأن الحياة تتحداه وتقصده هو فتأخذه العزة ويقابل الألام بروح انتقامية متعالية ، وهذا يكون استهتار من نوع آخر واستخفاف لا يخلو من مسحة حزن .

ثم تعود الحياة إلى بسمتها ، وتحلو من جديد ، وتزايها الكآبة وتبدو منبسطة الأسارير فتعود إلى المازني سعادته بها وحبها لها ، وربما تأمل هذا التضارب وهذا التقلب فبدأ له الأمر شبيها بلعب الأطفال وعبثهم ، كأننا الحياة لا تخضع لقانون وليس لها نظام ثابت أو هي غير جادة ، بل عابثة بنفسها ، وبمن عليها ، فلا أقل من أن تهون في عينه ، وتصبح مادة لسخريته وفكاهاته ، والواقع أن هذه السخرية تميل ميلا عن الكاتب للوصول إلى حالة التوازن والرضا عن الأوضاع السائدة من حوله عن طريق إعطائها ما تستحق ووضعها في المكان المناسب) .

إنه لا يجشم نفسه عناء تنظيم الكون أو إعادة خلقه على أسس سليمة ، فهذا نوع من الغباء ؛ لأنه من المحال أن ينظم الإنسان الوجود حوله ، ولكن الذكاء في أن يقبل الوجود على ما هو عليه - في رأي المازني - لذلك تجد كل شخصياته في قصصه لا تجاهد ولا تكابد ولا تصارع ، لأن بداخلها وعي ذاتي عميق لطبيعة الوجود ، وهو أن الإنسان يجب أن يتوافق وطبيعة الوجود حوله ، وليس العكس

فالصراع لا وجود له ، وإن بدأ فهو لا يصل إلى نهايته ، فهو صراع مجهض
وستحدث في نوعية الصراع في قصصه في مكانه المناسب من هذا البحث .

استعذاب الألم :

بعدما عرض لنا المازني مخرج من أزمة الوجود الإنساني ، وهو التعامل مع
الوجود من مبدأ لا عقلانية ، يعرض المخرج الثاني من تلك الأزمة
وهو (استعذاب الألم) وفي الحقيقة القبول والتسليم بلا عقلانية الوجود ، ليس
هو بالضعف بـمكان ، ولا هو بالاستجابة السلبية ، لأنه سيقرب عليه تقلل إفرارات
هذا الوجود من شقاء وألم وشر ، ولا نستطيع تقبل الألم وتحمله إن لم يكن لدينا من
القوة والقدرة والإرادة الكثير ، بحيث لا يصبح الألم له هذا الوقع المخيف ، والتي
ترهه وتخافه النفس .

والألم يصاحب الإنسان منذ ساعة الولادة إلى أن يفارق العالم ، والوجود
حافل به ، إذن لا مفر من أن نتعامل معه بشكل أو آخر ، وإلا لن يحتمل الوجود
واستعذاب الألم موقف حازم من عشية الحياة ولا عقلانية الوجود ، ويتخذ مطهر
التعالي ولا استخفاف واللامبالاة بهذا الوجود ومشاكله .

ومازني يشعر بالوجود شعوراً قوياً نتيجة ما مر به من أحداث وتجارب
مؤلة ، ولم يجد مخرجاً من هذا سوى التعالي والاستخفاف ، يقول د / حامد عبده
الهوال في كتابه «صفحة (٢٢٢) ، (وقد عرفنا من حياة المازني وظروفه الشخصية
ما كان له آثار بعيدة المدى على إنتاجه وعلى أسلوبه وعلى نظريته للأمور من حوله
كانت له طفولته التي لم تخل من الألم والمشاكل التي امتدت به حتى سن الشباب
وقاس من اضطرابات الحياة العائلية والمهنية والمالية والأدبية ، وربما تخلفت عن

ذلك أنقال على النفس اتخذت مظهرًا متشائمًا قاتمًا أحيانًا ، وكان يمكن أن تظل هذه نظرته إلى الحياة لولا أنه يملك هذه الموهبة القادرة على مواجهة كل شيء بالتعالي والاستخفاف . وهذا هو السرفي أن المازني لم يفقد مرحه ، ولم يضيع هذا الجانب العذب من شخصيته فبقى مثلاً للروح المصرية في خير مظاهرها من حب الفكاهة إلى درجة الوله . وإرسال النكتة على سجيتها في أي المواقف والتغلب على الشدائد بالمرح واللامبالاة) .

إنه انتصار للإنسان ضد الوجود ، وتلك هي عبقرية المازني ، فرغم فساد كل شيء وتفاهته ، إلا أنه يعيش الوجود ويضفي من لدنه إليه معنى ومغزى ، ويعيشه ويحياه بشقائقه بالآمه ، بشره ، بتناقضاته ، وليحاول أن يجعل لكل شيء معنى لا شيء يمنعه من أن يعيش وجوده ، وهو يعرف إمكانيات هذا الوجود ، ولا يطلب أكثر من تلك الإمكانيات حتى لا يشقى ، فالوجود فان ، فلا يطمح إلى الخلود والوجود مفعم بالشرف فلا يصبو أن يكون خيرًا صرفًا ، والوجود وضع وتافه فلا يتمنى منه الرقي والسمو . وكما قالت (ليلي) في قصة (إبراهيم الكاتب) : (كلا! لن أشقى . أو فلاشقى سيان ، إنما تنشأ الأحران لأن الإنسان يفرض لسعادته ثمنًا) .

ويقول إبراهيم الكاتب لشوشو في صفحة (١٣٨) : (اسمعي يا شوشو . لقد أهاب بنا نيتشة أن نحيا حياة خطيرة ولكني أقول أنه ينبغي أن نحيا حياة أيضا مؤلمة أن الألم لا سخي ولا بشع ، انظري هذه الشمس التي تنحدر نحو المغيب . إن للشمس بقعها ، والشمس على الرغم من بقعها هي حياة الأرض ، هي وحدها حياتها والسعادة أيضا لها بقعها . ولك أن تسميها ألما ، ولكن هذه الألم هي التي

تجعلنا نقدر السعادة التي نفوز بها ، والحياة بالقلب هي الحياة الثانية . أما من يبلد قلبه من يخنقه ، فهذا إنما يحيا حياة هندسية في ناحية واحدة وأحسبه مهما حاول لن يستطيع أن يقنع نفسه بعقله وحده ، وماذا يصير الناس في عالم تسيطر فيه العقول أتم سيطرة على القلوب ؟ ينقلب الرجال (نظريات) ذات لحى وشوارب والنساء ملاحق لها والحب لو غارقات للرغبات) .

إنها دعوة يصدع بها المازني ... أن نعيش الوجود سعداء ضاحكين مستخفين بكل شروره وآلامه ... فغن الحياة جد صغيره لا ينبغي أن نضيعها في البكاء على فساد الوجود ، لنخلق بأنفسنا السعادة إن لم نجد لها حولنا ، لنزرع الإبتسامة في قلوبنا إن لم بنيتها الوجود لنا ، لنبسط اشعة الجمال إن كان الوجود مقفراً منه ، لنجعله من داخلنا نحن ، وهذا هو سر فكاهات وسخریات المازني ، يريد أن يتغلب على الوجود ، فهو في صراع حاد معه ، ولم يجد من أسلحة سوى الضحك والإضحاك أن يبعده عن الوجود ، او يحطمه من خلال تركيز وتكثيف قبح الوجود في عينيه .

في (إبراهيم الثاني) يخاطب صديق له حينما ألح عليه وسواس المرض بقول في صفحة (٥٣) ، (... وأرح نفسك من هذه الوسواس وابتسم ، وأضحك والعب وأدخل السرور على نفسك ولا تجالس من يقول لك أن الدنيا دار شقاء وأن الحياة ذميمة ، فما أعطينا الحياة لنشقى بها بل لنحياها على خير ما نستطيع وفي أسعد حالة تتيسر لنا ... ثم ما هذه الضجة بالله ؟ ماذا نخاف ؟ أهو الموت ؟ فإننا جميعا أبناء الموت ولا مهرب لنا منه ، ولو أعطيت أقوى قلب في الدنيا لما منع ذلك ان تموت في يوم ما ، فلماذا نعي أنفسنا بالموت طول حياتنا ؟ وإنه لحال مقلوب - في شبابك

لا تضحك فإنك ما زلت في شبابك - أقول في شبابك يسود الخوف من الموت عيشك وتعلو سنك شيئاً فشيئاً ، وتدلف إلى الكهولة والشيخوخة فيكون من أثر هذا أن يوطن نفسك ويروضك على المصير المحتوم ، وفي الشيخوخة يشعر المرء بالبلادة كلما طاف برأسه خاطر الموت - لن الشيخوخة عبارة عن تبليد هو بمثابة الإعداد للموت - ففي صباح ... وفي نضارة عمرك في عهد القوة والفتوة واستطاعة الانتفاع بالحياة والاستمتاع بها . تنخص على نفسك هذه الحياة وتفسدها بالموت والفرع ثم ينقضي الشباب الذي لم تصنع به شيئاً ولم تركب به ما يركب ، وتجيء الشيخوخة - إذا أمد الله في عمرك - فيفتروقع الموت في نفسك ولا يعود له ذلك التنغيص القديم ، ولكن ما الفائدة حينئذ ؟ أليس هذا حالاً مقلوباً . انذهب ... انذهب يا رجل واخشن . وانتفع بما لا يزال لك من شباب) .

نعم ... نهيية الوجود هو الموت والفناء ، ولكن إلى أن تأتي تلك النهاية ينبغي للإنسان أن يستمتع بوجوده وبكل ما وهبه الله من نعم ... ولا ينبغي أن نمضي عمرنا وشبح الموت يلقي بظلاله على حياتنا ، ولا ينبغي أن يأخذ تفكيرنا في الموت - هذا التفكير المرضي - إلا لحظات ، وهي اللحظات التي يحضر الموت فيها للنفس وإلاً بتفكيرنا الدائم فيه فإننا نموت كل يوم ، وكل لحظة نفكر فيها هذا التفكير الممض .

نعم ... الوجود فاسد ، ولكن هل هذا يمنع أن نعيشه ؟

وهو قبيح ، ولكن هل هذا يمنع أن نحياه ؟

لنكن أقوى من الوجود ، لننتسamy فوق نقائصه وعبوبه ومقابحه ... المهم أن نقبله ولا نرفضه ، نستسيغه ولا نمجده ، فالوجود غابة مألونة بالأشواك والأفاعي

ومعارك الحيوانات الضارية التي تريد أن تلتقَ دم الإنسان ، وبجانب كل هذا يوجد الأزهار والثمار والظلال ، وعلى الإنسان أن يعيش وسط تلك الغابة ، ويتحمل فحيح الأفاعي ، ومعارك الحيوانات ليظفر بالأزهار والثمار والظلال ، فالوجود قاس ، ولا يعيش فيه إلا من كان أقسى وأقوى من شرور وآلم الوجود ... فهي دعوة يطلقها المازني لنكون أقوياء ، لنقبل تحدي الوجود ، ولننتصر على قبحه وفساده وانهلاله .

الصراع المجهض عند المازني

تتوقف جودة العمل القصصي على استكمال الصراع لكل مقوماته وقيامه على أسس تتوافق ومنطقية الغرض القصصي الذي افترضه القاص منذ البداية والصراع يمر بمراحل ليتشكل شيئاً فشيئاً في النهاية ، لتتمثل ذروة الصراع أو الأزمة التي تقع فيها الشخصية المحورية أو الشخصيات ، لتواجه نفسها والشيء المتصارع معه ، ثم تبحث عن حل لتلك الأزمة أو تحاول الخروج من هذا الصراع .

ونوعية الصراع يجب أن تتوافق وطبيعة الشخصية ، حتى يكون الصراع حاداً ، ويلقي من الأبعاد والمعاني ما يبرزه بصورة واضحة جلية إلى الوجود .

وبنادر سؤال إلى الذهن : هل نوعية الصراع هي التي تحدد أمزجة الشخصيات

أم أمزجة الشخصيات هي التي تحدد نوعية الصراع في القصة ؟

وعلى كل فيجب أن يكون هناك توافق ما بين نوعية الشخصية وتكوينها النفسي والمزاجي وفلسفتها ونوعية الصراع ، وإلا سيفقد حركته وتضاعده نحو الذروة ، ولن تتبلور حدة الأزمة على امتداد القصة ، وإن حدث هذا فستصبح الشخصية مطموسة الملامح والسمات ، ليست لها أي تميز أو تفرد .